١٤ ـ شاعرنا العالمي

أبو العتاهية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

تتمة

محاسنه ومآخذه: إذا كان لأبي العتاهية ذلك الفضل في الشعر العربي بطريقته الجديدة التي أحدثها فيه، وتوخيه فيه السهولة التي تجعله قريب النفع، وتجعل منه أداة صالحة لتقويم الشعب، فانه كان أحياناً يفرط في هذه السهولة، فينزل فيها إلى اللغة العامية، والواجب أن يتوسط في ذلك ويسلك في الشعر لغة بين هذه اللغة ولغته القديمة الجافة؛ ومما يؤخذ عليه من ذلك قوله:

ألا يا عُتْبَةُ الساعَهْ أموتُ الساعَةَ الساعَهْ

وقد قيل لأبي بَرْزَةَ الأعرابي أحد بني قيس بن ثعلبة: أيعجبك هذا الشعر؟ فقال: لا والله ما يعجبني، ولكن يعجبني قول الآخر:

جاء شقيقٌ عارضاً رُمحَهُ إن بني عمك فيهم رماحْ
هل أحدَثَ الدهرُ لنا نكبةً أم هل رَقَتْ أمُّ شقيق سلاح

أي نفثت فيه حتى لا يعمل شيئاً. ولا يفوتنا أن نأخذ على هذا الأعرابي أن هذا الشعر لا يصح أن يذكر مع ذلك الشعر، ولكن يجب أن يذكر معه غزل من نوعه، وفي معنى يعت بسبب إلى معناه، لتكون الموازنة صحيحة بينهما، وتظهر الفروق بين الشعرين تمام الظهور

وقال اسحاق بن ابراهيم الموصلي، وكان ممن ينكر على أبي العتاهية: أنكر الرشيد على طمني على أبي العتاهية في شعره، فقلت يا أمير المؤمنين هو أطبع الناس، ولكن ربما تحرف، أي شيء من الشعر قوله:

هُوَ اللهُ هُوَ اللهُ ولَكِن يغفر اللهُ

وقال أبو عبيد الله المرزباني: ومما أنكر على أبي العتاهية من سفساف شعره قوله في عتبة:

ولَّهَنِي حبُّها وصيرني مثل جُحى شهرة ومشخلَبَهْ

وقوله:

يا وَاهًا لذكر الـ ـه يا وَاهًا ويا وَاهَا
لقد طَيَّبَ ذكر الـ ـه بالتسبيح أفواها
أرى قوماً يتيهونَ حُشوشاً رزقوا جاها
فما أنتنَ من حُش على حُش إذا تاها

وقال علي بن أبي المنذر العروضي: لما مات سعيد بن وهب الشاعر حضر أبي جنازته، وحضرها الفضل بن الربيع، وكان قد ظهر أيام المأمون، فلما دفن أثنى عليه الفضل، وأقبل على أبي العتاهية يحدثه أنه أودع القضاة والعدول أموالا فما وفوا له، وأنه أودع سعيد بن وهب مالا فوفى به، فقال أبي لأبي العتاهية: ألا ترثيه؟ قال: بلى، قال أبي: ثم صرت بعد أيام إلى الفضل ابن الربيع فأخرج إليّ رقعة، فقال: اقرأ مرثية أبي العتاهية لسعيد بن وهب، فاذا فيها:

مات والله سعيدُ بن وهب رحم الله سعيدَ بن وهب
يا أبا عثمان أبكيتَ عيني يا أبا عثمان أوجعت قلبي

فقلت ما أدري ما أقول؟ فقال الفضل: أبو العتاهية بأن يرثى في حياته أولى من سعيد بعد موته، قال الصولي: وله شبيه بهذا في محمد بن يزيد السلمي:

قد مات خِلي وأنسي محمد بن يَزيد
ما الموتُ والله منا خلافه ببعيد

قال أبو عبيد الله المرزباني: وقوله في مرثية عيسى بن جعفر أشبه بقوله في سعيد بن وهب مما ذكره الصولي وهو:

بكت عيني على عيسى بن جعفر عفا الرحمن عن عيسى بن جعفر

ويمكن أن يعتذر عن هذا وأشباهه بأنه مما كان يقوله أبو العتاهية في حديثه السائر ولا يريد به الشعر، وقد روى أبو الفرج رثاءه لسعيد بن وهب بطريق آخر فقال: أخبرني علي بن سليمان الأخفش عن محمد بن مزيد، قال: حدثت عن بعض أصحاب أبي العتاهية، قال: جاء رجل إلى أبي العتاهية ونحن عنده فساره في شيء فبكى أبو العتاهية، فقلنا له: ما قال لك هذا الرجل يا أبا اسحاق فأبكاك؟ فقال وهو يحدثنا لا يريد أن يقول شعراً:

قال لي مات سعيد بن وهب رحم الله سعيد بن وهب
يا أبا عثمان أبكيتَ عيني يا أبا عثمان أوجعت قلبي

قال فعجبنا من طبعه ، وأنه يحدث فكان حديثه شعراً موزوناً ؛ وإنما نرجح هذه الرواية بورودها عمن شاهد هذا الشعر حين يقال وعاينه بنفسه ، ولعل الفضل غير فيه هذا التغيير ، ثم رواه بذلك الشكل ليزري به على أبي العتاهية بعد أن فسد ما بينهما على ما ذكرنا

ومما أنكر على أبي العتاهية قوله :

حلاوةُ عيشك ممزوجةٌ ... فما تأكل الشهد إلا بسم

فالمعنى صحيح لأنه جعله مثلا لبؤس الدنيا الممازج لنعيمها ، والعبارة غير مرضية ، لأنا لم نر أحدا أكل شهدا بسم ، وأجود من قوله لفظاً ، وأصح معنى ، قول ابن الرومي :

وهل خُلةٌ معسولة الطعم تجتبَى ... من البيض إلا حيثُ واشٍ يكيدُها

مع الواصل الواشي وهل تجتنِي يدٌ ... جنَى النحل إلا حيثُ نحلٌ يذودُها

وأنكر عليه أيضا قوله :

ياذا الذي في الحب يلحَى أما ... والله لو كُلِّفتَ منه كما

كلفتُ من حبٍّ رخيم لَمَا ... لمتَ على الحب فنرني وما

ألقى فاني لستُ أدري بما ... بُليتُ إلا أنني بينما

أنا بباب القصر في بعض ما ... أطوف في قصرهم إذ رمى

قلبي غزالٌ بسهام فما ... أخطأ بها قلبي ولكنما

سهماه عينان له كلما ... أراد قتلي بهما سلَّما

فانه من الشعر المضمن ، والتضمين عندهم عيب شديد في الشعر ، وخير الشعر عندهم ما قام بنفسه ، وخير الأبيات ما كفى بعضه دون بعض ، مثل قول النابغة :

ولست بمستبق أخاً لا تلمهُ ... على شعثٍ أيُّ الرجال المهذَّبُ

فلو تمثل إنسان ببعضه لكفاه ، إن قال « أي الرجال المهذب » كفاه ، وإن قال « ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث » كفاه ، وقد سبق أني لا أرى رأيهم في عيب هذا التضمين ، ولست أدري لماذا لا نجيز في الأسلوب القصصي هذه القطعة الشعرية البارعة المتماسكة ، فيكون لنا من تماسكها وحدة شعرية ملائمة لوحدة قصتها ، كما يكون لنا في الحكم ونحوها أبيات مستقلة ، فيها يقوم كل بيت منها حكمة قائمة برأسها

أما محاسنه وعيون شعره فنذكر منها ما أثر عنهم ، واستحق به التقديم عندهم ، قال موسى بن صالح الشهرزوري : أتيت سلما الخاسر فقلت له أنشدني لنفسك ، قال لا ولكن أنشدك لأشعر الجن والانس ، لأبي العتاهية ، ثم أنشدني قوله :

سكنٌ يبقى له سكنُ ... ما بهذا يؤذن الزمنُ

نحن في دار يخبِّرنا ... بلاها أنها لبنُ

في سبيل الله أنفسنا ... كلنا بالموت مرتهنُ

كلُّ نفس عند ميتها ... حظُّها من مالها الكفن

إنما مالَ المرء ليس له ... منه إلا ذكرهُ الحسن

وقال بشار لأبي العتاهية : أنا والله أستحسن اعتذارك من دمعك حيث تقول :

كم من صديق لي أسا ... رِقُهُ البكاءَ من الحياءِ

فاذا تأملني لامني ... فأقول مابي من بكاء

لكن ذهبتُ لأرتدي ... فطرفتُ عيني بالرداء

فقال له أبو العتاهية : لا والله يا أبا معاذ ماقلت إلا بمنك : ولا اجتنيت إلا من غرسك حيث تقول :

شكوت الى الغواني ما ألاقي ... وقلت لهن ما يرى بعيدُ

فقلن بكيتَ قلتُ لهن كلا ... وقد يبكي من الشوق الجليدُ

ولكني أصابَ سوادَ عيني ... عُوَيْدُ قذًى له طرفٌ حديد

فقلن فما لدمعهما سواء ... أكلتا مقلتيكَ أصاب عود

وقال أبو سلمة الباذغيسي : قلت لأبي العتاهية في أي شعر أنت أشعر ؟ قال قولي :

الناسُ في غفلاتِهم ... ورَحا المنية تطحَنُ

وقال الفضل بن الربيع لأبي العتاهية : يا أبا إسحاق ما أحسن بيتين لك وأصدقهما ! قال وما هما ؟ قال قولك :

ما الناس إلا للكثير المال أو ... لمسلَّطٍ ما دام في سلطانه

فاذا الزمان رماهما بليَّةٍ ... كان الشقاتُ هناك من أعوانه

وقال عبد الله بن الحسن بن سهل الكاتب : قلت لأبي العتاهية أنشدني من شعرك ما يستحسن فأنشدني :

ما أسرعَ الأيام في الشهرِ ... وأسرع الأشهرَ في العُمُر

ليس لمن ليست له حيلةٌ ... موجودةٌ خير من الصبر

فاخبط مع الدهر إذا ما خبطا ... واجرِ مع الدهر كما يجرى

من سابقَ الدهرَ كبا كبوة ... لم يستقلها آخر الدهر

وقال أبو تمام الطائى : لأبى العتاهية خمسة أبيات ما شركه فيها أحد ، ولا قدر على مثلها متقدم ولا متأخر ، وهى قوله :

الناسُ فى غَفَلاتِهِمْ ورحا المنيـة تطحنُ

وقوله لأحمد بن يوسف :

ألم تر أن الفقر يُرجَى له الغنى وأن الغنى يخشَى عليه من الفقر

وقوله فى موسى الهادى :

ولما استَقَلوا بأثقالهمْ وقد أزمعوا للذى أزمعوا
قرنتُ التفاتى بآثارهم وأتبعتهم مُقْلـةً تدمع

وقوله :

هب الدنيا تصير اليك عَفْواً أليس مصير ذاك الى زَوَال

وقال العتبى : رؤى مروان بن أبى حفصة واقفا بباب الجسر كئيباً آسفا ينكت بسوطه فى معرفة دابته ، فقيل له يا أبا السمط ما الذى تراه بك ؟ قال أخبركم بالعجب : مدحت أمير المؤمنين فوصفت له ناقتى من خطامها الى خفيها ، ووصفت الفيافى من اليمامة الى بابه أرضا أرضا ، ورملة رملة ، حتى إذا أشفيت منه على غناء الدهر ، جاء ابن بياعة النخاخير - يعنى أبا العتاهية - فأنشده بيتين فضمضع بهما شعرى ، وسواه فى الجائزة بى ، فقيل وما البيتان ؟ فأنشد :

إن المطايا تشتكيك لأنها تطوى اليك سباسباً ورمالا
فاذا رحلن بنـا رحلن مخفّة وإذا رجعن بنـا رجعن ثقالا

وهذا قليل من كثير من عيون شعر أبى العتاهية ، ودبوان شعره فى جزأين كبيرين أولهما فى الزهد ، وثانيهما فى الأغراض الأخرى ، وقد جمعه أحد القسوس اليسوعيين نقلا عن رواية النمرى وكتب مشاهير الأدباء كالأصفهانى والمبرد وابن عبد ربه والمسعودى والماوردى والغزالى وغيرهم ، وهو مطبوع فى بيروت سنة ١٣٠٥ هـ سنة ١٨٨٦ م

وليس ما فى هذا الديوان كل شعر أبى العتاهية ، لأنه كان أحد ثلاثة لم تمكن الاحاطة بشعرهم لكثرته ، وهم بشار والسيد الحميرى وأبو العتاهية ، وكان فى هذا أكثرهم شعرا ، ولعلنا بما كتبناه فى حياته وشعره نكون قد قربناه لمن يجهله أو يجحد به ، وقدمنا للأدباء مثلا من الشعر النبيل الذى يجب أن ينسجوا على منواله .

عبد المتعال الصعيدى

الرأى

للشاعر الراوية الأستاذ أحمد الزين

سأحمل فى الرأى مَضَّ الألم وأصبر للخطب إما ألمّ
وأحمل نفسى على مُرّها إذا ضاقها ما يضيم الكرم
ولا أشترى كل هذا الوجود ولا العيش فيه ببعض الشمم
وأزهد فيما بناه الرياء وأصدع بالرأى مهما هدم
فأهْوِنْ علىّ بدنيا النفاق وجاه يُنال ببيع الذمم
هو الرأى روحك فاحرص عليه فما بعد روحك غير العدم
وحكم القلوب بإلهامها وما أصدق القلب فيما حكم
فلا تطلبن وداد الصديق بمدح تزوّره أو بذمّ
فإن اللسان رسول القلوب يحدّث عنها بلا أو نعم
وإن العقيدة عِرضٌ فصنه إذا كنت ممن يصون الحُرَم
سَرت فى فؤادك مسرى الدماء فلا تبذل الدم إلاّ بدم
أمانة ربك فى خلقه فمن كتم الحق فيها ظلم
وميثاقه قبل خلق الجسوم تلقّته أرواحنا فى القِدم
بها رفع الله تلك النفوس وميّزها عن سوام النَّعم
فلا تغبطنّ أخا حظوة فما نالها برخيص القيم
ولكنه باع فيها الضمير وألقى العقيدة تحت القَدم
وساوم بالنفس فعل البغىّ رمت بالحياء ابتغاء اللقم
وكم أسخط الحق فى موطن وكم ألبس النور ثوب الظلم
تكاد مظاهره الخالبات تشف لعينيك عما كتم
ويوشك منظره المجتلى يحدّث عما طوى من سَهَم
فلا تغترر ببهاء الوضيع فكم من حذاء صقيل الأدم
وعش بالعقيدة عيش الكرام ومت رجلاً تحت هذا العلم
ولا تعتدد بالأولى خالفوك وكن أماً إن عصتك الأمم

أحمد الزين